الثورة في الأدب العربي الحديث

بقلم سعيد الشيباني

ان مسؤولية حماية بقاء الانسان ملقاة ـ اليوم ـ على الفن الثوري ، يرى الانسان اليوم ان العلم في تطوره التاريخي يتجه اتجاهين : اتجاها في خدمة الانسان وحماية بقائه على الارض ، واتجاها اخر في خدمة (العدم) وما دامت المجتمعات البشرية تنقسم الى طبقات مستغلة وطبقات مستغلة فان الصراع بين الوجود والعدم سيبقى وستبقى البشرية ـ ابدا ـ تتقاتل في سبيل ان تأكل الطبقة المترفة الطبقة الكادحة .

ويقول المستغلون لمجهود البسطاء ان الغنى والفقر سنة الحياة وارادة السماء وجعلوا من انفسهم في الأرض وكلاء للسماء ، وبنوا الكنائس والمعابد لتكون منابر الدعاية لهم .

وقبل ان تتدخل السماء في شؤون الارض كان الانسان يعمل متضامنا ويطعم مجهوده جماعيا ، ولما ظهرت الكهنوتية وتعمدت الكنيسة وارست اركانها تحملت عبء مسؤولية السماء وقامت ببيع الصفقة الروحية على عباد الله الطيبين الذين لا يملكون شيئا سوى الصلاة . اما مجهودهم العضلي فقد كان ملكا للمترفين وللكنيسة ، وكم باعت الكنيسة صكوك الغفران لعباد الله الطيبين ! وكم قبلت اعترافات ! وكم ادانت ، وكم اعدمت من هؤلاء البؤساء ! ولكنها في سجلها ـ لم تدن يوما ما في تاريخها غنيا ؟ لماذا ؟ لا يستطيع احد ان يجيب على هذا سوى قداسة البابا !؟

ولم يتحمل مسؤولية الدفاع عن عباد الله الطيبين سوى الادباء هؤلاء المخلوقين الذين يصارعون بالحروف ، فهم لا يملكون البلطات ، ولا السيوف ، بل كان سلاحهم هو مجموعة من الكلمات المضيئة ، واليوم تقع مسؤولية الدفاع عن مخلوقات الله البائسة على هؤلاء الادباء الذين يحملون بذور الانسانية القادمة والذين يعتبرون ارقى احساس المجتمع.

وفي واقعنا العربي يتحمل الادب اليوم المسؤولية العظمى في سبيل اعادة حقوق المتعبين الذين هضموا طوال التاريخ ولم يعد هناك اليوم من يستطيع ان يقول ان الغنى والفقر سنة الحياة سوى اولئك الذين يملكون كل شيء ولم يعد مطلب الاشتراكية جريمة الا في دساتير الدول البورجوازية التي هي اداة قمع طبقية تحمي المترفين من غضبة البؤساء تحمي الرأسمالية من العمال وتحمي الاقطاعيين من الفلاحين ، وتحمي السادة من العبيد ، واذن فان مفهوم ثورة الادب لدينا ليس كونه يعظ المترفين ان يرحموا المعدمين فتلك وسيلة سلفية من بقايا سيطرة الكنيسة والمعابد ، فاذا رآى راء عاريا يسير حافيا وراء شخص حسن الهندام فلا يجب ان يقول ان هذا شيء طبيعي لانه حتى هذه المرحلة التاريخية من تطور البشرية ليس هناك شيء او وضع اسمه (طبيعي فكي شيء في نظرنا لا يزال غير طبيعي ، والذين يملكون المبررات هم الذين ارتكبوا الجريمة ، فالمحامون غير الثوريين مثلا في نظرنا هم شركاء القتلة واللصوص لان وظيفتهم ليست اكثر من تبرئة المجرم وادانة البريء ، لان المجرم يملك اتعاب المحاماة اما البريء فلا يملك سوى حقه في كونه (انسانا حقيقيا شريفا) والانسانية الشريفة بكل أسف ـ شيك بلا رصيد لا تقبل النقابات ولا البنوك صرفه في اي مصرف ـ والامن العام والاستخبارات أليست وظيفتهما تتبع المجرمين واللصوص في المجتمع ؟ ولكن من هم المجرمون ومن هم اللصوص ؟ اذا اردنا ان نعرف ذلك فحق علينا ان نكون شرفاء وكوننا شرفاء يجعلنا في قفص الاتهام ، لان المجرم لا يخاف مجرما مثله بل يخاف ضده وهو المواطن الصالح .

فمثلا ؟ لماذا صلب المسيح ؟ ولماذا صلب اسبارتاكوس ؟ ثم لماذا اعتبر فلاسفة ومفكرو الاسلام الاول زنادقة ؟ حتى الان لم يجد الشرفاء جوابا سليما ؟ ولماذا اعدم لوركا ؟ ولماذا طرد شارلي شابلن من نيويورك رغم ان تمثال الحرية فيها اجمل تمثال في العالم ؟ ولماذا طرد بول روبنسن من الولايات المتحدة ؟ ومن هو الذي قتل كندي ؟ وروزفلت ؟ ومن الذي شرد ناظم حكمت ؟ (وقتل الوار) وغيرهما ؟

ان الذين يملكون الجواب الحقيقي عن كل هذه الصور من الجرائم البشرية هم وحدهم الذين يعتبرون في نظر القتلة مجرمين تماما مثل المقتولين .

فهوارد فاست ، وشارلي شابلن ـ مثلا ـ يعتبران مجرمين خطيرين في نظر السيد مكارثي والسيد دالاس . وفي وطننا العربي يوجد نفس الشيء طالما فيه مخلوقات بشرية واشباه مخلوقات بشرية .

فثورة الادب تعني في نظرنا الثورة على المجرم الحقيقي عدو الشعب وعدو الشعب العربي لا يختلف عن عدو الشعوب الاخرى مطلقا، فنحن نرى انه باسم الشعب تعدم طلائع الشعب ، وباسم الشعب تنهب اموال الشعب وباسم الشعب نفسه يحارب الشعب ؟ فهل يمكن القول ان الذين يستغلون الشعوب هم الذين يدافعون عن حقوق الشعب ؟ ان ذلك اشبه بمن يأتمن الذئب على القطيع : ولكي يكون الادب ثوريا فعليه ان يناضل لتغيير المجتمع كيفيا وهذا يعني الا يصبح المجتمع قسمين : قسما منتجا وقسما مستهلكا ، بل يجب ان يكون المجتمع قسما واحدا اي منتجا ومستهلكا لانتاجه ، ـ فالمجهود الذي يبذله العامل والزارع يعود اليه بشكل منافع متنوعة متبادلة .

ربما يرى البعض ان هذا خلط في الامور ،فيقول ان لا دخل للادب في الاقتصاد والسياسة والفلسفة ونحن لا نرفض هذا الاعتراض بل نحن موافقون عليه لكن موافقتنا مشروطة بشرط موضوعي هام ، وهو ان نلغي عقولنا وبالغاء عقولنا فقط نكون متفقين ، لاننا اذا ابقينا عقولنا فانها ـ اي عقولنا ـ كثيرة الفضول فسوف تحشرنا في الفلسفة وتقول لنا ان الانسان ثمرة التاريخ والتاريخ لا يعمل الا بواسطة الانسان فهما مترابطان وكل شيء مترابط ، فالغني مرتبط بالفقير والرابط بينهما هو عنصر استغلال الغني للفقير ، وهكذا تصبح الحياة المجتمعية مترابطة في علاقات وشروط ذاتية ، وخارجية ، وحينما نقول او نصل الى هذه القوانين العلمية فاين نضع (اللامنتمين ـ والعدميين الخ) هذه المصطلحات الفنية الجديدة ، وبدون ان ندري نصبح بقدرة قادر بشري مجرمين في حق الشعب ويصبح تطبيق نصوص الدستور والقوانين الجنائية لازما علينا لاننا نفكر وتلك هي مصيبة الادباء في وطننا العربي وفي كل وطن بورجوازي ! فمهمة الادب الثوري هو التصدي لكل التحركات الساعية ضد مصالح الشعب الذي يشرب المترفون دمعه خمرة ويرفعون الشعارات باسمه .

والادب العربي في كل فنونه ـ نقصد الادب الثوري ـ قد التزم وسيبقى ابدا ملتزما الدفاع ضد القوى الشريرة التي تسعى الى تدمير العالم ، والقوى التي تحارب وحدة العالم العربي وحريته وحقه في اختيار الطريق الديمقراطي والسلامي وهي ليست قوى خارجية عن الوطن العربي فقط بل ان ركائزها داخل الوطن العربي هي اشد

خطورة واشد شراسة ، وكل حبة لا تجد تربة صالحة لا تنمو ، ومـــا كان في استطاعة الاستعمار ان يقتحم الوطن العربي ما لم يجـــد المترفين والرجعيين يروون مزرعته وصباره في حقل الشعب ، والحقيقة ان الادب العربي الثوري لم يقف متفرجا بل ناضل بجسارة ضد الطغاة والجلادين والدخلاء والعملاء ، ونستطيع مـن هنا ان ندرك الدور الذي يقوم به الادب الثوري في تحول المجتمعات ولان الاديب انسانفانفعاليته فعالية غائية وهي جعل المجتمع المتناقض مجتمعا منسجما ، والفن عامة ـ اي الفن الثوري ـ له فعاليته في وجدان المجتمع فاغنيتا « فيروز » مثلا (سوف احيا) و (سنرجع يوما الى حينا) واغنية عبد الوهاب (فلسطين) تعملفي الوجدان العربي اكثر مما تعمله مليون خطبة في مركز السياسة العربية .

ان فعالية الفن في المجتمع العربي فعالية ايجابية ثورية صلبة ، واذا عدنا الى الماضي وجدنا تاريخ الادب العربي يعرفنا ان مولد شاعر لقبيلة غربية كان يعني مولد القبيلة ذاتها ، وان بيت هجاء لشاعر تدمر قبيلة وبيت مدح لشاعر اخر ترفع قبيلة لم تكن معروفة على مدىطويل، وحتى العصر الحديث لا يزال للادب فعاليته الموضوعية . واقرب دليل هو قصيدة نزار قباني (خبز وحشيش وقمر) لقد احدثت ضجةعظيمة في سوريا ولا يستطيع احد ان ينكر خوف السياسيين الرجعيين وربهم الاستعمار من الادباء الثوريين في الوطن العربي وغيره . لقد كـــان (ناظم حكمت) يهز بشعره كراسي الاسياد في تركيا ، و بابلو نيردوا لا تزال كلماته تردد في شوارع اميركا الجنوبية وعلى شواطىء الكاريبي وقناة بنما ، وما كان يرهب قيصر الفولغا سوى جوركي ، ومایاكوفسكي، ولم يلق نوري السعيد وعبد الاله وقاسم سوى حروف شعراء العراق العمالقة رغم انهم لا يملكون اكثر من الشعر ، وحينما نفكر بثورة العراق يقفز الى اذهاننا طلائع هذا الشعب الثوري ، كالرصافي والجواهـري والبياتي وخالد الشواف وعلي الحلي والسياب ونازك الملائكة وكاظـم جواد وهلال ناجي وعدنان الراوي وغيرهم . فعدنان الراوي حينما يقول:

والملوك الطغاة بدعة قوم يرثون الطغيـان بالانسياب
يا بلاط الكفر المقيم تهدم يـا بلاطا اقيم بالاصلاب
اصاب ليملأ اليأس قلبي وغوى ليستـذل حـرابي
يا روابي دمشق يا (حلب الشهباء) يا وميض كل شهاب
يا دماء في ميسلون كموج في حمى (اللاذقية) الصخاب
ناصري انا يقينـي بالله والشعـب وحـدة الفـلاب
ستعود الاعـلام اعـلامنا الشماء مرسومة على الاهداب

لم يقل ذلك ابتغاء مرضاة ملك او بلاط ، بل من اجل الشعب الـــذي هو يقينه . والشاعر خالد الشواف حين يقول :

يـا ساسة العرب سقيتـم شعوبكم
مـن كرمة الخور القتـال ما فصدا
ملأتمـو سمـــع الدنيـا بجعجعة
جوفاء ليس لهـا في العالمين صدى
ان الشعوب اذا ضاقت بواترها فما تقوم الا بالدم القودا
ماذا تقولـون للتاريـخ ويلكمـــو
اذا بعـار الليالي حـدث الابـــدا

فهو لم يكن لينذر الساسة العرب ، بل كان يستحث الشعب العربـي على الثورة ضد هؤلاء الساسة الاستعماريين العملاء ، وعبد الوهـاب البياتي الذي منح حياته للحرف الشريف المعذب لم يكن الا مدا ثوريا لشعب ثوري :

ايها الحرف الذي علمني حب الحياة
ايها الحرف الاله
اه لا تطفىء مصباحك اه
كل ما اكتبه محض صلاه
لك ، للعلم ، ما اكتبه محض صلاه
وسلاحي في يدي ضد السلاطين واحفاد الغزاه
ايها الحرف المعذب
اينما تذهب اذهب

ثم ينهي قصيدته بقوله :

لتهب العاصفه
لتهب العاصفه

وما العاصفة سوى الثورة ضد السلاطين واحفاد الغزاة ، وان كلقطر عربي يرتبط في ذهن الشعوب في ذهن الجماهير الكادحة بادبائـــه وفنانيه .

وكما يربط العراق بفنانيه كذلك السودان والجزائر والجمهورية العربية المتحدة وتونس واليمن وكل الاقطار العربية الاخرى . فصورة السودان الثورة نجدها في شعر محمد الفيتوري ، ومحيي الدين فارس وجيلي عبد الرحمن وتاج السر الحسن كطلائع مثقفة تقود نضال هـذا الشعب الذي عبثت به ايدي المستعمرين وحاولوا تجزئته كما جـزأوا اليمن والمغرب والشام ، والفيتوري لم ير في السودان جزءا منفصـلا عن باقي شعوب افريقيا العربية والافريقية ففي قصيدته (البعـث الافريقي) يحرض افريقيا على الثورة ضد السادة المستعمرين :

افريقيا
افريقيا استيقظي
استيقظي من حلمك الاسود
قد طالما نمت الم تسأمي ؟
الم تملي قدم السيد
قد طالما استلقيت تحت الدجى
مجهدة في كوخك المجهد
مصفرة الاشواق ، معتوهة
تبني بكفيها ظلام الغد
جوعانة تمضغ ايامها
كحارس المقبرة المقعد
عريانة الماضي بلا عزة
تتوجالآتي ، ولا سؤدد

وارتباط الادب بقضية الشعب اصبح مطلبا بل واجبا انسانيا . والفيتوري هذا الشاعر الانسان رأى الشابي ذلك الشاعر العمـــلاق الذي غدا شعره يدوي في الوطن العربي ويردد صوت النذير بانكسار القيد ، ويخاطب الشاعر السوداني الشاعر التونسي العظيم ، كمـــا خاطب البياتي ناظم حكمت قائلا :

يا معجز الارض بفن السماء
ومعجز الموت بسر الخلود
كم زحزحت كفاك من صخرة
سدت على الفجر طريق الصعود
وكم مشت روحك في هوة
صاحبها خلف الزوايا طريد
وكم حضنت الشوك مستغرقا
في فكرة مملوءة بالورود
وعشت كالمنبوذ في امة
هدت قواها مومياء الجمود
ومت لكن الذي لم يمت
هذا البناء الضخم ، هذا القصيد
شعر كاشواقك يغزو السماء
امتداده كالسنديان العتيد

والشابي مفخرة الشعر العربي الثورة وعمود ضخم من اعمـدة الادب الثوري الحق ، وكما ناضل الادباء العرب في قضايا بلادهـــم العربية والانسان العربي المتطلع فقد ناضلوا من اجل الانسان اينمـــا حل ، ولذلك يتساءل الشاعر اللبناني خليل حاوي عن مولد بطـــل السلام والانسانية ذلك البطل الذي هزم قياصرة روما دون رماح ودون سيوف ، انه يبحث عن البطل العربي الذي يخلص هذا الانسان العربي المعاصر من مأساته السوداء ويقفز به الى صباح الخير والسلام :

اترى يولد من حبي لاطفالي وحبي للحياة
فارس يمتشق البرق على الغول ، على التنين
ماذا هل تعود المعجزات ؟
بدوي ضرب القيصر بالفرس
وطفل ناصري وحفاة
روضوا الوحش بروما
سحبوا الانياب من فك الطفاة
رب ماذا ،
رب ماذا ؟ هل تعود المعجزات

اما صلاح عبد الصبور فلم يكن حواره للفاصبين حوار سياسي محترف بل كان يمثل صوت الشعب الحقيقي الذي يواجه الغاصبين بكل صلابة وجبروت وعناد ، وقد خاطب عدوه بلغة الشعب :

ساقتلك .
من قبل ان تقتلني ساقتلك
من قبل ان تغوص في دمي اغوص في دمك
وليس بيننا سوى السلاح
وليحكم السلاح بيننا

واننا اذا تذكرنا مواقف العرب التحررية البطولية ، فسنجد بور سعيد رمزا لبطولة الشعب العربي وقد كان الادب الثوري العربي خاصة الشعر سلاحا رهيبا في هذه المواقف ضد الغزاة والطامعين كما انه ارتبط ارتباطا قويا بمطالب الشعب العربي في التحرر والاشتراكية والوحدة ، فليس هناك شاعر ثوري لم يناضل بحروفه الشريفة ضد الغزاة المستعمرين في فلسطين الحبيبة وفي جبال وهران الصامدة وفي بور سعيد العتيدة وفي اليمن السعيدة وعلى النهرين ودمشق والنيل من اجل الحياة الكريمة ومن اجل العروبة الموحدة ومن اجل الانسان العربي العملاق ، وكما غنى الشاعر سليمان العيسى في سوريا بالوحدة العربية :

ويمور الحشد اطفالا وشيبا وشبابا
ينسجون الوحدة الكبرى دماء وغلابا
لوحوا بالنير من بغداد تستدني الرقابا
فتركناه ولما يبدي في الافق سرابا
ومضينا نهب الساح كما شئنا خضابا

كذلك غنى بها شعراء اليمن ورددتها السنة الادب في كل ميدان

يقول الشاعر عبد الله البردوني :

انا توحدنا هوى ومصائرا — وتلاقت الاحباب بالاحباب
اترى ديار العرب كيف تضافرت — فكأن صنعاء في دمشق روابي
وكأن مصر وسوريا في مأرب — علم وفي صنعاء اعز قباب
اليوم القى في دمشق بني ابي — وأبث اهلي في الكنانة ما بي
وأبث اجدادي بني غسان في — ربوات حلق محنتي وعذابي
واهيم والانسام تنشر ذكرهم — حولي فتنضح بالعطور ثيابي
دعني اغرد فالعروبة روضتي — ورحاب موطنها الكبير رحابي
فدمشق بستاني ومصر جدأولي — وشعاب مكة مسرحي وشعابي
وسماء لبنان سماي واهلها — اهلي واصحاب العراق صحابي
بل اخوتي ودم الرشيد يفور في — اعصابهم ويضج في اعصابي
فاترك جناحي حيث يهوى يحتضن — جو العروبة جيئتي وذهابي

ويقول الشاعر محمد الشوفي :

يا وحدة الامال انا ها هنا في كل درب
امل تداعبه انامل موكب نشوان صب
يهفو لوحدته الكبيرة بين اشواق وحب
فتطل من افق القلوب كأنها خفقات قلب
تزهو بركب شامخ الاضواء يجري اثر ركب
فيكاد يغشى الناظرين صباحها الاسنى ويصبي
اهلا بقافلة العروبة يلتقي شعب بشعب
وتمر تيارا يزاحم منكب الدنيا بجنب

ونستطيع ان نقول بجرأة وثقة ان اتجاه الادب العربي اليوم هو اتجاه ثوري واقعي يجمع بين عكس الواقع الصادق وبين التحويل الثوري لهذا الواقع . ونقصد بالواقعية في الفن تأكيد حوادث الحياة الموضوعية المتراكمة . وامام الادب اليوم جبهات نضال متعددة ، فليست الحرب على القديم هو هدف الفن ، بل هدفه تحويل الواقع العربي الحالي الى واقع افضل . ونحن نرى ان مؤتمرات الادباء العرب يجب ان تتحول الى جبهة عربية موحدة وان تتخذ موقفا ايجابيا في سبيل الدفاع عن مبادىء الانسان العربي والعالمي والعمل على تحقيق انسانية هذا الانسان والا كانت هذه المؤتمرات ضجيجا في صحراء لا صدى له.

فلسنا نؤمن بان الادب للادب ، بل الادب من اجل الكادحين ليس ليقرأوه بل ليتخذوه سلاحا ضد استغلال الانسان لاخيه الانسان وضد السلطات الغاشمة التي تتحكم بمصائر الجماهير ، من اجل الديمقراطية الشعبية من اجل حرية العمال والفلاحين المنتجين ، وهذا يعني ان الادباء سوف يواجهون جميع السدود المجتمعية والاسوار ، ولكن يجب اقتحام جميع الاسوار في سبيل فجر الانسان العربي ، فقد آن للذين استضعفوا على الارض ان يثوروا ليملكوا زمام مصيرهم ، وعلى الادباء وحدهم تقع مسؤولية توعية الجماهير العاملة وتنظيمها للقيام بدورها التاريخي ضد عدو الانسانية الثنائي الاستعمار والرجعية .

ان الوجدان القومي العربي غدا حقيقة موضوعية لا خيال شاعر ولا نغم موسيقى ، بل ممارسة عملية لبناء وطن عربي واحد تحت راية واحدة ، ولواء واحد ، تلك حتمية التاريخ ، والذين لا يؤمنون بالتاريخ فانا ندعوهم ان يتصدوا للتاريخ ، والذين ينطلقون من ذاتيات طبقية مريضة عدمية ، هم وحدهم الذين يحفرون لانفسهم قبرا بايديهم، ونحن سوف نساعدهم بكل امكانياتنا على ردم قبورهم عليهم ، وادباء اليمن يمدون كفهم الى ادباء الوطن العربي بصلابة واصرار وجرأة متحدين القيود والحدود كافرين بالجمود والتعصب والذرائع والاقليمية الضيقة.

واذا تناقضت الوسائل فلا يجب ان تتناقض الاهداف الواحدة والذين لا يؤمنون بحتمية الوحدة العربية هم وحدهم مسؤولون عن عدمهم لانهم دمى في ايدي الاستعماريين والرجعيين يفلسفون لهم ويطورون مفاهيمهم في محاربة الشعب العربي وجوابنا اليهم هو انهم :

لن يردموا ابدا نهر الحياة وقد
تدافعت فيه كالحمى سواقينا
ان العروبة قد قامت قيامتها
فليشمخ الشعب ولتسقط اعادينا

سعيد الشيباني

صدر حديثا عن :

دار العلم للملايين

بيروت

- **ازهار الضياع**
  احدث دواوين الشاعر سليمان العيسى
- **ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية**
  للاستاذ جورج صيدح
  طبعة جديدة مزيدة ومجلدة تجليدا أنيقا .
- **طبيبك معك** للدكتور صبري قباني
- **الغذاء لا الدواء** للدكتور صبري قباني
- **الحرية ومشكلتها في البلدان المتخلفة**
  للدكتور منيف الرزاز
- **الحرب العالمية الاولى**
  اوفى مجلد عن سير هذه الحرب واسرارها .
- **مباحث في علوم القرآن** للدكتور صبحي الصالح
- **علوم الحديث ومصطلحه** للدكتور صبحي الصالح